

لقداء العالم الذي كان مكفأً به، وكانت أمه الكلية القداسة معاونته في ذلك، تعمل معه من كل قلبها. كانت تغرق إنسانية يسوع بأحزان بالغة جداً حتى أنه كان يعرق دماً كما كان قد حصل ذلك من قبل بمناسبة مختلفة. ولكنها لم تفتأ عن الحنين إلى ذبيحته، إرضاءً لعدل الله، وتكفيراً عن إهانة عزته.

وكانت أمه الفائقة الشرف تتحد إتحاداً قوياً بعواطفه هذه وآلامه، تذرف الدموع دماً، وتسقط أحياناً في إغماء يكاد أن يكون مميتاً. عندئذ يأمُر ابنها الرؤوف الملائكة ليسندوها ويعزّوها ويترنّموا بأناشيدها. وكان أحياناً يسندها هو نفسه. وكما كانت تذهب بانخفافات تستقبل فيها مفاعيل كبيرة من الألوهية. كانت ترى كيف أن المخلص الإلهي كان ينظم الظفر بعالم النفوس كقائد، قبل أن يبدأ حرباً حاسمة. كان يرسم الخطة ويوزع الأدوار على ضباطه. ومن ذلك الوقت كانت العذراء تصلي من أجل إنجاح الرسل بمهمتهم، هم الذين سيصبحون على رأس هذه الحملة التي لا مثيل لها.

وكانت تصرخ وهي مضطربة بالنار التي كان يجب أن تنتشر على الأرض: – يا حبيّ اللأ متناهي كيف يتمكن الناس الزائلون أن يرفضوك؟ يا صلوات وأحزان مخلصي المحبوب، من يستطيع أن يحقرك بحدوده؟ يا أولاد آدم! يا ليتني أستطيع أن أموت عدّة مرات من أجلكم حتى أستطيع أن امنع هلاككم. وبعد هذه العواطف القلبية الحارة للغاية، كان يسوع يعزّيها فيريها حبّه لها وحبّ الثالوث الأقدس، كما يريها استحقاقات ومجد المختارين، التي كانت

كانت مريم تطلب من يسوع السماح أن تهبيّ هذا الطعام المتواضع وتقدّمه له. كانت تخدمه وهي جاثية على ركبتيه، وتضاعف من السجّادات أمامه أو تطلّ ساجدة حتى يأمرها بالنهوض وكانت تقبل قدميه ويديه دوماً مع دموع التواضع العميق والتقوى الحارة.

لا يمكن تصوّر الأفعال السّامية التي قامت بها برفقته. لقد وهب للملائكة فقط التأمل بهذا المشهد. وبما أنهم كانوا قائمين على خدمتها فكانوا يسبقونها لترتيب منزلها الفقير، ولكنها كانت تودّ أن تقوم بنفسها بهذا العمل الوضيع. – يا سفراء ألعلي! كانت تقول لهم، إن هذه الأشغال الوضيعة ليست أهلاً بسموكم، ولكنها مناسبة لطبيعتي، لأنني خرجت من التراب وأنا خادمة للرب. أنا أعلم ثمن الأفعال الوضيعة التي يردلها العالم. أتركوني أصنعها حتى أحصل على استحقاقات لا تعرفون كيف تحصلون عليها.

ومكافأة لتواضعها كان الملائكة يترنّمون لها، عندما تكون بالصلاة العقلية مع ابنها، التسابيح التي ألفتها هي نفسها على شرف الألوهية والتجسّد. وكانت تأمرهم أن يعيدوها عندما يذهب يسوع إلى الراحة أو إلى تناول الطعام. لأنه لشدة حنانها كانت تُسرّ أن تروّج عنه بأنغام هذه الموسيقى. وهذه كانت إحدى العجائب التي تحصل بين يسوع ومريم طيلة الأربع سنوات التي قضياها معاً في بيتهما. ومعرفة أغليبيتها محفوظة للسماة لتسبب للمختارين فرحاً إضافياً كما ذكر هذا من قبل. لم يكن مخلصنا يكفّ عن التحضير